مجلة المعيار ISSN :2588-2384
مجلد: 23 عدد: 45 السنة: 2019

المنطلقات التفسيرية والمنهجية
في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.

د. يعقوب الزهرة
جامعة عبد الرحمن بن خلدون- تيارت (الجزائر)
yagoub48@hotmail.com

تاريخ الوصول: **2018/03/17** القبول:.2019/01/02 / النشر على الخط:2019/01/05
Received :……l Accepted :……l Published online :……

الملخص: حاول أبو حيان الإحاطة بجميع طرائق العملية التفسيرية للنص القرآني بدء من الصوت فالنحو ثم التداول ،والذي أفضى عمله هذا الى تفسير البحر المحيط في سن متأخرة بعد المامه وتبحره في علوم القرآن. حيث اتبع فيه منهجا علميا،استند فيه على سبعة وجوه هي:علم اللغة،علم الصرف والنحو،علم البيان والبديع،أسباب النزول،الناسخ والمنسوخ،علم أصول الفقه،علم التوحيد،علم القراءات ،وهذه الوجوه ربطت بين النحو والدلالة والتداول.

الكلمات المفتاحية:المنهج،النص القرآني،أبوحيان الأندلسي،قواعد التفسير،تفسر البحر المحيط.

Explanatory and methodological premises
In the interpretation of the Elbahr elmouhit of Abi Hayyan Andaloussi

Summary: Abu Hayyan attempted to take note of all the modalities of the interpretive process of the Qur'anic text, starting from the sound of the deliberation, which led to the interpretation of the surrounding sea at a later age after the Mamama and sailing in the Koran. where he followed a scientific approach, based on seven faces: The science of language, drainage and grammar, the science of the manifest, the reasons for the descent, the copier and the copied, the science of Fiqh, the science of Unification, the science of readings, these faces are linked to grammar, semantics and deliberation.

Keywords:Curriculum : the Qur'anic text ;Abu Hayyan andalousi ;Rules of interpretation ; Interpretation of Elbahr elmouhit .

مقدمة:

ينطلق أبو حيان في تفسيره المسمى البحر المحيط من فكرة حمل القرآن على أحسن الوجوه، وأن ينزه عن الضرورات التي أجازها النحاة في شعر الشمّاخ[1] والطرِمَّاحْ[2] وغيرهما[3]. وللوصول إلى تلك الغاية سطر منهجا دقيقا يعكس من خلاله بوضوح البعد الشخصي والمعرفي لأبي حيان الأندلسي (ت: 745 هـ)، المتميّز بغزارة العلم وسعة المعرفة وتنوع الثقافات وعمق التفكير، وهذا ما جعله عالما فذا ضليعا متمكنا حاول الإحاطة بجميع أوجه تفسير القرآن من نحو وصرف وبلاغة ومعجم وصوت وفقه، فغدا تفسيره من أعظم تفاسير القرآن الكريم من حيث كثرة الاستشهاد من شعر ونثر وقراءات مشهورها وشاذها، وتعرضه للناسخ والمنسوخ وأحكام الفقه وأدلته، وتتبُعه مسائل النحو واللّغة والبلاغة، فيثير قضاياها ويُعقب عليها، بالرفض أو القبول إلى جانب اهتمامه باللّهجات العربية وغير العربية، فهو مُؤَلَف موسوعي شامل يصدق فيه مضمون العنوان "البحر المحيط" أو كما يطلق عليه صاحبه "كتابي الكبير"[4].

المكونات العلمية والثقافية لأبي حيان الأندلسي:

[1] – الشـمَّاخ: شمّـاخ: جبـل شـامخ، وشمّـاخ: طويـل في السـماء، ورجـل شمّـاخ: كثـير الشـموخ والشـمّاخ بـن ضـرار اسـم شـاعر، واسـم الشـماخ: معقـل. ينظـر: ابـن منظـور، جمـال الـدين محمـد بـن مكـرم. لسـان العـرب. دار المعارف،القـاهرة – مصر. مادة: شمخ، م4، ج25، ص: 2321.

[2] – الطرمّاح: طرمح البناء وغيره: علاّه ورفعه ومنه سمّي الطّرماح في بني فلان إذا كان عالي الذكر والنسب والطّرمّاح: المرتفع، وهو أيضا الطويل: ينظر: م. س، م4، ج 30، ص: 2668.

[3] – ينظر: الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدّين. تفسير البحر المحيط. عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى؛ 1413هـ- 1993م.ج1، ص: 61.

[4] – الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدّين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص: 93.

لقد تظافرت البيئة الأندلسية والمشرقية في بروز ملامح تكوين شخصية أبي حيان العلمية والثقافية والفكرية، ويمكن أن نجملها فيما يأتي:

أ- النحو واللّغة: لقد برع أبو حيان في النحو والصرف، فكان له فيهما المجال الأول، إذ نجد أغلب التراجم والدراسات عند ذكرها لاسمه أنّها دائما ما تختمه بلقب النحوي، وهذا دلالة على أنّ النحو من أهم العلوم التي عُرّف بها أبو حيان، وتعلق ذكره به،كما وصفوه بما يؤكد تقدمه وسبقه في هذا العلم، فقد قال عنه المقري (ت: 1041 هـ) "هو شيخ النحاة بالدّيار المصرية"[1]، وقال عنه تلميذه الصفدي (ت: 764هـ) "كان إمام النحاة في عصره شرقا وغربا وفريد هذا الفن الفذ بُعدا وقربا، وفيه قلت:

سلطانُ علم النحوِ أستاذُنا الـ شيخُ أثيرُ الدين حَبْر الأنامْ
فلا تقلْ زيدٌ وعمرٌو، فما في النحو مَعَهُ لسواهُ كلامْ[2]

تتلمذ أبو حيان على يد أشهر أئمة النحو واللّغة من الأندلس والمشرق، كأبي جعفر بن الزبير، وأبي جعفر النحوي (ت: 691 هـ)، وحجة العرب بهاء الدين بن النحاس الحلبي النحوي (ت: 698هـ)، وأبي جعفر المالقي (ت: 702هـ)، وحازم الأنصاري القرطبي (ت: 684هـ)، وغيرهم كثير وصل إلى نحو أربعمائة عالم وخمسين[3]،وإذا نظرنا إلى كتب التراجم والأعلام وجدناها تصف من تتلمذ على يد أبي حيان بأنّهم نحاة لهم باع في علم النحو، فأحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد الحلبي شهاب الدين (ت: 756 هـ): "المقرئ النحوي نزيل القاهرة المعروف بالسمين، تعانى النحو، فمهر فيه، ولازم أبا حيان إلى أن فاق أقرانه، وله تفسير القرآن، والإعراب ألفه في حياة شيخه أبي حيان، وناقشه فيه

[1] -المقري،التلمساني.أحمد بن محمد.نفخ الطيب من عصن الأندلس الرطيب. . تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان، 1388هـ- 1968م.ج2،ص:535.

[2] -م.س، ج2، ص:538.

[3] -م.س، ج2، ص:552.

كثيرا،وشرح التسهيل، وشرح الشاطبية وغير ذلك"[1].ومن هؤلاء التلاميذ، كذلك بهاء الدين أبو حامد السبكي الشافعي (ت: 773هـ): "اشتغل بالفقه والنحو والأصول وغير ذلك على والده وعلى الشيخ أثير الدين أبي حيان وغيرهما"[2].

وهذا الأخير كان شديد الحب والتعلق بمعلمه الأول، حيث نظم قصيدة يمدحه فيها أولها:

فِداكم فؤادٌ حانَ للبُعدِ فَقْدُه وصَبٌّ قَضَى وَجْدًا وما حالَ عهدُهُ
وقلبٌ جريح بالغرام متيُّم وطَرفٌ قَرِيحٌ طال في اللّيل سُهدُه[3]

أمّا اللّغة والأدب ،فقد كان فيهما الماهر والمتفنن والبحر الذي لا يجاريه أحد ،فهذا تلميذه الصفدي – أديب عصره– يشير إلى أدبه، والكتب التي ألمّ بها والتي أعانته على أن يبرز فيهما، قال: "قرأت عليه الأشعار الستة، والمقامات الحريرية وقرأت عليه سقط الزند لأبي العلاء المعري (ت: 1058م)، وبعض الحماسة لأبي تمام الطائي (ت: 231 هـ)، ومقصورتا بن دريد (ت: 323 هـ)، وسمعت من لفظه كتاب الفصيح لثعلب (ت: 291هـ)، وكان يحفظه. سمعت من لفظِه خطبة كتاب "ارتشاق الضرب من لسان العرب"، وانتقيتُ ديوانه وكتبته وسمعت منه، وسمعت من لفظِه ما اخترته من كتاب مجاني الهصر وغير ذلك"[4].وكان أبو حيان يُجيد العديد من لغات ولهجات الأمم المختلفة، كاللغة الفارسية واللغة

[1] –السيوطي،جلال الدين عبد الرحمن.بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.ج1،ص:402.

[2] –الصفدي،صلاح الدين خليل بن ايبك.كتاب الوافي بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرنأووط، تركي مصطفى ،دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى؛ 1420هـ– 2000م.ج7،ص:161.

[3] – السيوطي،جلال الدين عبد الرحمن.بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.ج1،ص:343.

[4] – الصفدي،صلاح الدين خليل بن ايبك.كتاب الوافي بالوفيات.ج5،ص:176.

التركية، واللغة الحبشية بجانب اللغة العربية[1]، واللهجة السريانية والعبرانية، والحورانية، والقطبية، وغيرها[2].

إنّ ثقافته الواسعة وتتلمذ هؤلاء التلاميذ وغيرهم، والذي تعدى سبعة وسبعون [3]طالب علم- دال على مدى تقدمه وسبقه في علم النحو واللغة وأستاذيته التي جعلته مقصدا ومطلبا لطلاب العلم والمعرفة، ودليل على تبوء علم النحو واللغة مرتبة أولى في تكوين ثقافته الفكرية والعلمية. وهذا ما تشهد به آثاره النحوية واللغوية، ومن ذلك[4]:

1- منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك.

2- التذليل والتكميل في شرح التسهيل.

3- الارتضاء في الفرق بين الضاء والظاء.

4- ديوان شعر.

5- تقريب المقرب.

6- المبدع الملخص من الممتع.

7- ارتشاق الضرب من لسان العرب، والذي عُدَ من أجل ما أَلَفَهُ

8-تذكرة النحاة ...وغيرها من المصنفات والتآليف.

ويلحظ مما سبق، أنّ الثقافة النحوية كانت أبرز مكون من المكونات العلمية والفكرية لأبي حيان الأندلسي.

---

[1] - ينظر:مكرم،عبد العال سالم.المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن الهجري.دار الشروق،بيروت-لبنان؛الطبعة الأولى؛1980م،ص:279.

[2] - خان، محمد. اللّهجات العربية والقراءات القرآنية. دراسة في البحر المحيط-. دار الفجر، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى؛ 2002م.ص:43.

[3] - ينظر:شكري، أحمد خالد. أبو حيان الأندلسي ومنهجه في تفسير البحر المحيط وإيراد القراءات فيه. دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى؛ 1428هـ- 2007م.ص:86-90.

[4] - المقري،التلمساني.أحمد بن محمد.نفخ الطيب من عصن الأندلس الرطيب.ج2،ص:552-553.

ب- التفسير وعلوم القرآن الكريم:من منطلق تحقيق الغاية التي صرح بها أبو حيان في مقدمة تفسير البحر المحيط، قال: "جعلت كتاب الله والتدبر لمعانيه أنيسي، إذ هو أفضل مؤانس، وسميري إذا أخلو لكتب ظلم الحنادس." [1]اشتغل بالتفسير وأتقن علومه بعد أن برع في النحو واللغة، فكانت له اليد الطولى فيه، وأضحى "إمام المفسرين في وقته، وصاحب التصانيف المشهورة التي سارت شرقا وغربا"[2].

وقد أخذ التفسير وعلومه من شيخه الأول أبي جعفر بن الزبير الثقفي، ونجده يكثر في تفسير البحر المحيط الاستشهاد بأقواله، ومن شيخه ابن النقيب (ت: 698هـ)، قال عنه أبو حيان: "واعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا على كتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير من جمع شيخنا الصالح القدوة الأديب جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي المعروف بابن النقيب- رحمه الله-"[3]، كما يشيد بشيخه أبو علي بن أبي الأحوص القريشي الفهري (ت: 379 هـ) ،فيما أخبر عن تفسير ابن عطية (ت: 546هـ) قال أبو حيان: "وما كان في هذا الكتاب من تفسير ابن عطية، فأخبرني به القاضي الإمام أبو علي الحسين بن عبد العزيز الأحوص القريشي"[4].كما تلقى علم القراءات بقراءة السبعة بجزيرة الأندلس على يد أبي جعفر بن الطباع الرعيني الغرناطي، وأبي محمد عبد الحق بن علي بن عبد الله الأنصاري (ت: 712هـ)، وبقراءة الثمان بثغر الإسكندرية على الشيخ

[1] – الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدّين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص:54.

[2] – الدمشقي،ابن قاضي شهبة. تقي الدين أبي بكر بن أحمد.طبقات الشافعية.اعتنى بتصحيحه:عبد العليم خان،دائرة المعارف العثمانية بحيدار آباد،الهند،الطبعة الأولى؛1399هـ-1979م.ج3،ص:89.

[3] – الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدّين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص:30.

[4] –م.س، ج1، ص:33.

الصالح رشيد الدّين أبي محمد عبد النصير بن علي بن يحي الهمداني (ت :608هـ)،وبقُرائه السبع بمصر على الشيخ فخر الدين بن علي المليجي (ت: 681هـ) [1].

أمّا فيما يخص أحكام القرآن وأدلته، فبحث في أقوال أئمة أصول الفقه، فكانت وجهة بحثه كتاب المحصول لأبي عبد الله عمر الرازي،وكتاب الإشارة لأبي الوليد الباجي (ت: 474هـ)، حيث تلقى شرح هذين الكتابين من شيوخه في الأندلس كابن الزبير وغيره[2].كما اهتم بعلم الحديث لاستنباط و"تعيين المبهم وبيان المجمل ومعرفة سبب النزول والناسخ والمنسوخ"[3]، وذلك بتحري النقل الصحيح عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- من الصحيحين- صحيح البخاري، صحيح مسلم- والجامع للترمذي ،وسنن أبي داود، وسنن النسائي ، وسنن ابن ماجة، وغيرها من كتب الحديث النبوي التي درسّها وشرحها وروى مضمونها على ألسنة شيوخه، كشرف الدّين بن أبي الحسن التوني الدمياطي الشافعي (ت: 705 هـ)، وشهاب الدين أبو فضل ابن خطيب (ت: 598هـ)، وعبد الصمد أبي البركات بن الحسن بن محمد بن عساكر (ت: 687هـ)، وعبد العزيز أبو العز الحراني (ت: 686 هـ)، وهذا الأخير، يقول عنه أبو حيان: "وقرأت البخاري على جماعة أقدمهم إسنادا فيه أبو العز الحراني قرأته عليه بلفظي إلاّ بعض كتاب التفسير من قوله تعالى: "**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ**"(سورة البقرة،الآية:222) إلى قوله سبحانه: "**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ**"(سورة النور،الآية:14)، فسمعته بقراءة غيري"[4].

[1] –م.س،ج1، ص:29.
[2] –م.س، ج1، ص:30.
[3] – م.س، ج1، ص:107.
[4] – المقري،التلمساني.أحمد بن محمد.نفخ الطيب من عصن الأندلس الرطيب.ج2،ص:560.

ويبدو أنّ أبا حيان الأندلسي، قد حاول الإحاطة بجميع طرائق العملية التفسيرية للنص القرآني بدء من الصوت ثمّ التركيب ثم التداول، والذي أفضى عمله هذا إلى تفسير البحر المحيط في سن متأخرة بعد إلمامه وتبحره في علوم القرآن.

لقد تبوأ أبو حيان في تفسير القرآن وعلومه مكانة ومرتبة عالية، وهذا ما تبرزه مصنفاته التي اختصت بهذا العلم، والتي انْكَبَ مُرِيدو العلم عليها، نذكر منها[1]:

1- تفسير البحر المحيط، والذي قيل عنه بأنّه" كان متداولا بين أهل العلم ومعتبرا عندهم المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم"[2].

2- تفسير النهر المادّ، وهو مختصر لتفسير البحر المحيط.

3- عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي.

4- الحلل الحالية في أسانيد القراءات العالية.

5- الوهاج في اختصار المنهاج.

6- الأنوار الأجلي في اختصار المحلي.

هذه بعض مؤلفاته، وليس كلها، وإن دلّ على شيء إنّما يدل على سعة ثقافة هذا الرجل – رحمه الله- وعلمه وتبحره في مجالات وعلوم شتى ونبوغه وتفوقه فيها.وعليه، يمكن القول بأنّ تفسير القرآن وعلومه كان مكونا أساسيا في ثقافة أبي حيان- حسبك أنّه غايته الأولى -ولا شك أنّ مصنفاته تشهد عليه ذلك؛ وفي مقدمتها تفسير البحر المحيط.

ج- المرجعية الفكرية والدينية لأبي حيان: نشأ أبو حيان في بيئة أندلسية منتصف القرن الثامن الهجري، تخطت فيه مراحل وضع العلوم والتجادل في قضاياها وإرساء قواعدها وقوانينها التي اكتملت في المشرق إلى مرحلة التصنيف والتلخيص والشروح في المغرب

[1] – ينظر:الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدّين. تفسير البحر المحيط.ج1،ص:40 ،41.

[2] – الذهبي،محمد حسين.التفسير والمفسرون.مكتبة وهبة ،القاهرة-مصر.ج1،ص:226.

والأندلس وهذا ما تثبته كثرة الشروح و التلخيصات لمصنفات علماء المشرق.وفي ظل هذا النضوج والاكتمال برز في الحياة العملية والدينية منهجان هما:

المنهج الأول: منهج النقل، أو مذهب أهل الحديث، أو مذهب أهل الأثر، وهو المنهج الاتباعي الانقيادي ،المتقيد بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكان من الطبيعي أن يوجد لهذا المنهج أتباع وأنصار كثيرون،إذ كان هناك حرص شديد من المسلمين على الاهتداء بنور الكتاب المجيد، وعلى تتبع أقوال الرسول –صلى الله عليه وسلم- وأفعاله وتقريراته"[1]، فبقي النّص في دائرة الفهم من ذلك تفسير الطبري.

والثاني: منهج العقل ومذهب أهل الرأي، وهو المنهج الذي يضيف إلى تقبل النص إعمالا للفكر والتدبر فيه، واستنباطا للحكم الشرعي، واجتهادا في تفسير النّص أو تأويله"[2] فانتقل النص من الفهم والإفهام إلى التأويل النصي. ويندرج ضمنه أهل الكلام والجدال، كالمعتزلة والشيعة والصوفية وغيرها، ومثال ذلك مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، ولباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين المعروف بالخازن (ت: 741هـ).

من هذين الفهمين، يتبنى أبو حيان مرجعيته الفكرية في تفسير البحر المحيط من خلال الأخذ والرّد، بعيدا عن الفلسفة والمنطق والغلو في الدين وعلم الكلام التي كانت"الأندلس تنفر منها، وتدعو إلى عدم الاشتغال والاهتمام بها وتحارب معتقديها ومريدها، لما يقيمه في فهم أسرار القرآن على العدول عن النص إلى البحث في باطنه وخفاياه وأغواره إلى ما وراء النّص، والتي تستجيب إلى معتقداتهم

[1] – الشرباصي، أحمد. يسألونك في الدين والحياة. دار الجيل، بيروت- لبنان، 1401هـ- 1981م .ج6،ص:542.

[2] – م.س، ج6،ص:543.

وحاجتهم إلى الاستدلال على صحة قراءتهم [1] النصية،وهذا يعني التوفيق بين النصوص على ظواهرها، وبين ما تخفيه وهذا ربما مبلغ الهدف والقصد والغاية.

وإذ كان أبو حيان عكف على تدبّر معاني كتاب الله ومدارسته والاشتغال بالحديث وأقوال الصحابة واتباع السلف والمتقدمين عليه، فإنه تبحر في كل هذا وأخذ من دررهم اللآلىء النفسية لحمل كلام الله بها على أحسن الوجوه، فتنوعت اللآلىء بين اللغة والبلاغة والنحو والقراءات والتفاسير، وبين ذاك وذلك اختلفت المرجعيات الفكرية والدينية، فنجده مناقشا ومحاورا وناقدا لاذعا، فهذا الزمخشري،المعتزلي صاحب الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، وابن عطية صاحب تفسير المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الذي أشاد بهما ونوه بتفسيريهما حيث قال فيهما –التفسيران–: "ولما كان كتاباهما في التفسير قد أنجدا وأغارا وأشرقا في سماء هذا العلم بدرَين وأنارا، وتنزلا من الكتب التفسيرية منزلة الإنسان من العين، والذهب الإبريز من العين، ويتيمة الدُر من اللآلىء، وليلة القدر من الليالي، فعكف الناس شرقا وغربا عليهما وثنوا أعنة الاعتناء إليهما"[2]. من جهة ومن جهة أخرى وجه لهما نقدا لاذعا في عدّة مواضع في بحره بعد بيان غايته في كشف دسيسهما قال:"وكان فيهما على جلالتهما مجال لانتقاد ذوي التبريز ومسرح للتخييل فيهما والتمييز ثنيت إليهما عنان الانتقاد وحللت ما تخيّل الناس فيهما من الاعتقاد ، أنّهما في التفسير الغاية لا تدرك والمسلك الوعر الذي لا يكاد يسلك وعرضتهما على محك النظر، وأوريت فيهما نار الفكر، حتى خلص دسيسهما وبرز نفيسهما، وسيرى ذلك من هو للنظر أهل، واجتمع فيه أنصاف وعدل"[3].

[1] – الجطلاوي، الهادي. قضايا اللغة في كتب التفسير– المنهج، التأويل، الإعجاز–. دار محمد علي الحامي، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى؛ 1998م.ص:07.

[2] – الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدّين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص:112، 113.

[3] –م.س، ج7، ص:81.

ويبدو أنّ أبا حيان كان حريصا على تتبع وإظهار زلات الزمخشري -حسبه- التي كان عمادها بدعة المعاني، وانزلاقات الفهم عن التأويل المسرف وتعدد القراءات. فيقول فيه بعد ذكر ما وقف عليه من زلات:

فيا حسَّرة شيخ تخرَّق صيته مغارب تخريق الصَّبا ومشارقا
لئن لم تُداركه من الله رحمة لسوف يُرى للكافرين مُرافقا[1].

مما جعله يصفه ويحكم عليه بـ "قليل البضاعة من البيان والعربية مع أنّه سلطان هذه الطريقة في التفسير من غير مدافع"[2].ولكن ما الذي جعل أبا حيان يتحامل عليه وعلى غيره من العلماء؟.إنّ هذا التحامل سببه المرجعية الفكرية التي تبناها، وهي القول بظاهر النص دون الرّجوع إلى التأويل أي"يودّ لو يصل إلى منطوق الآية بأقرب طريق ، دون إضمار أو تأخير أو جرى وراء مشاحات لا طائل من ورائها"[3].

لقد التمس أبو حيان هذه النزعة الظاهرية من مؤسّسها داود الظاهري (ت: 270 هـ) فاعتز بنزعته وتسلّح بها أثناء عرضه للنصوص القرآنية على المعنى الظاهر دون الرجوع إلى التأويل وهو يلتزم بذلك في كثير من المواضع على امتداد البحر، ومن عباراته في ذلك، "وهذا خلاف الظاهر والأكثر في لسان العرب"[4]، وقال به قوم من أهله الظاهر وفي أثناء المفاضلة بين رأي ورأي آخر، أو في ردّه على مسألة من المسائل من ذلك قوله في وروده "العدول عن

[1] -م.س، ج1، ص:82.
[2] -م.س، ج7، ص:76.
[3] - السمين، الحلبي. احمد بن يوسف. الدرر المصون في علوم الكتاب المكنون. تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق- سوريا. ج1،ص:46.
[4] - الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدّين. تفسير البحر المحيط. ج2،ص:40.

الظاهر إلى غير ذلك إنّما يكون لمرجّح"[1]، وقوله أيضا: "يكون عدولا عن الظاهر لا لدليل" [2]وقوله أيضا: "ولا حاجة هنا للخروج عن الظاهر"[3].وهذا يعني أن النزعة الظاهرية أو المذهب الظاهري، يقوم على الأخذ بظاهر النصوص بغير تعليل لها.

وقد نشأ هذا المذهب الظاهري في المشرق أولا في القرنين الثالث والرابع الهجري ثمّ اختفى في القرن الخامس الهجري، ليظهر في بلاد الأندلس على يد الإمام ابن حزم الأندلسي (ت: 456 ه) الذي خلّده في كتبه وبثه بين تلاميذه الذين نشروه في أرجاء البلاد[4].

وتمثل المذهب الظاهري من خلال ابن حزم في استنباط الأحكام الفقهية على النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، ولا يتجاوز ذلك، حيث يقول:لا يجوز الحكم –البتة في شيء من الأشياء كلها– الاّ بنص من كلام النبي —صلى الله عليه وسلم–أو بما صح عنه صلى الله عليه وسلم من فعل أو إقرار أو إجماع من جميع علماء الأمة كلها،متيقين أنه قاله كل واحد منهم ،دون مخالف من أحد منهم،أو بدليل من النص" [5].

ولعل وجهة ابن الحزم الظاهرية التي تستند على إنكار التعليل في الأحكام الفقهية، حيث يرى بأنّ التعليل هو "استخراج أحكام في الشريعة لم ينزلها الله على رسول –صلى الله عليه وسلم —فهي غائبة عنا "[6]، وهذا ما يجعل المذهب الظاهري يبطل العمل بالقياس والتعليل.

---

[1] –م.س، ج2، ص:60، 61.

[2] –م.س، ج2، ص:170.

[3] –م.س، ج2، ص:188.

[4]– ينظر: عيد، محمد. أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث. عالم الكتب، الطبعة السادسة؛ 1997م، ص: 26، 27.

[5]–الأندلسي،ابن حزم.محمد علي بن أحمد بن سعيد. الاحكام في أصول الأحكام.تحقيق:أحمد محمد شاكر،منشورات دار الأفاق الجديدة،بيروت–لبنان، ج7،ص:55، 56.

[6]– م.س،ج7، ص:178.

ومن منطلق إنكار التعليل والقياس في الفقه، يهاجم التعليل النحوي، ويقرّر بأنّ"ما يستعمله النحويون في عللهم فإنها كلها فاسدة لا يرجع منها شيء إلى الحقيقة وإنّما الحق في ذلك أنّ هذا سمع من أهل اللغة الذين يرجع إليهم ضبطها ونقلها،وما عدا هذا فهو مع أنه تحكم فاسد متناقض"[1]، ويبدو أنّ هذه النزعة النحوية الظاهرية لابن حزم الأندلسي أثرت في النحو العربي عند ابن مضاء القرطبي (ت: 592) ،في كتابه الرد على النحاة الذي طالب فيه بإلغاء العوامل وإلغاء العلل الثواني والثوالث وإلغاء القياس والتقديرات والتأويلات في النحو العربي[2].

ومن المؤكد أنّ رد ابن مضاء على النحاة وثورته عليهم كان له أثر في منهج أبي حيان وخاصة لكون كل منهما ظاهري النزعة الفكرية.

المرجعية النحوية لأبي حيان بين التعليلية والظاهرية:

إنّ أبا حيان قد أقر بأنّ علم العربية من علم الوضعيات ،والوضعيات لا تحتاج إلى تعليل قائلا: "باب الوضعيات العربية في الحقيقة لا يحتاج فيه إلى تعليل كما لا يحتاج في علم اللغة إلى تعليل"[3].

كما نجده يشيد بابن مضاء في إلغاء العلل الثواني والثوالث التي بها فسد النحو العربي فقال: "ولم أر أحد من المتقدمين نبّه عن إطراح هذه التعاليل إلاّ قاضي الجماعة أبا جعفر

[1]- الأندلسي،ابن حزم.محمد علي بن أحمد بن سعيد.التقريب لحد المنطق والمدخل اليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية.تحقيق:أحمد فريد المزيري،منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ص:157.

[2]-ينظر:القرطبي،ابن مضاء.أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن.كتاب الرد على النحاة.تحقيق:شوقي ضيف،دار المعارف،القاهرة-مصر،الطبعة الثانية،ص:38.

[3]- الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك. تحقيق:سيدني جلازر،الجمعية الشرقية نيوهافن كونكتي،الطبعة الأولى؛ 1947م، ص: 230.

أحمد بن مضاء صاحب كتاب "المُشرق في النحو"،فإنّه طعن على المعلّلين بالعلل السخيفة وردّ عليهم ما شحنوا به كتبهم من ذلك""[1].

ويلحظ ممّا تقدم أنّ موقف أبي حيان من العلة النحوية ونفوره من التعليل، موقف واضح، والدليل على ذلك اختصاره لكتاب التذليل والتكميل في شرح التسهيل في كتاب ارتشاق الضرب قال:"ولـمّا كان كتابي المسمى بالتذليل والتكميل في شرح التسهيل قد جمع من هذا العلم ما لا يوجد في كتاب وفرغ بما حازه تآليف الأصحاب،رأيت أن أجرد أحكامه عارية الآفي النادر من الاستدلال والتعليل"[2].

ومن جهة أخرى، فإنّ أبا حيان رغم التزامه بالصناعة النحوية وموقفه من العلة النحوية، نجده يأخذ بالعوامل اللّفظية والمعنوية سيرا على نهج المتقدمين عليه، وفي مقدمتهم إمام النحاة سيبويه، حيث قال: "وأحسن موضوع فيه وأجله كتاب أبي بشير عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه"[3]. الذي كان له أثر في تكوين آرائه النحوية، فهو لم يخرج عن هذا الكتاب إلاّ نادرا.

ولعل تصريحه هذا، يؤكد انتهاجه نهجه ويبعده عما قيل عنه "أنّه متأثر بابن مضاء في ثورته ضد نحاة الشرق"[4]، والذي يدعو من خلالها إلى كسر نظرية العامل التي هي أصل وأساس النظرية النحوية العربية، ويبدو أنّ ابن مضاء اهتدى الى هذه الثورة ضد نحاة الشرق

[1]- الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك.ص:231.

[2]- الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. ارتشاق الضرب من لسان العرب، تحقيق: رجب عثمان محمد،مكتبة الخانجي،القاهرة-مصر،الطبعة الأولى؛1418هـ-1998م، ج1،ص:04،03.

[3]- الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. تفسير البحر المحيط، ج1، ص: 106.

[4]- الكوعاوي، سعاد كريدي. العوامل اللفظية في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي-دراسة نحوية-.تموز، دمشق-سوريا، الطبعة الأولى؛ 2012م، ص: 10.

من مذهبه الظاهري، قال: "أما مذهب أهل الحق، فإنّ هذه الأصوات، إنّما هي من فعل الله تعالى، وإنّما تنسب إلى الإنسان كما ينسب إليه سائر أفعاله الاختيارية"[1].

وبالتالي، فإنّ أبا حيان يقف موقف الوسط بين المتقدمين عليه وثورة ابن مضاء القرطبي، فهو لا يخوض في البحث عن العلل والتعليل ،وهذا يتفق مع ثورة ابن مضاء ومذهبه الظاهري، ويلتمس من المتقدمين عليه الدليل والحجة فيما ذهب إليه.

وهذا يعني، أنّ المذهب الظاهري كان له دور في تكوين مرجعيته الفكرية والذي استحضِر في طرائف تحليله النحوية واللغوية بالاعتماد على تحليل النصوص وليس الأفكار وتحليل اللغة وليس المعاني أي عدم الخوض في متاهات التأويل.

يتضح من كل ما سبق، أنّ أبا حيان ساهمت نشأته الأندلسية في بروز ملامح شخصيته العلمية والثقافية، وتحديد مرجعيته الدينية، فكان رجلا موسوعيا بحرا في علوم شتى، فهو النحوي واللغوي والمفسّر والأديب والشاعر والمترجم وغيرها من العلوم . نخلص من هذا الفصل ، أنّ نشأة أبي حيان الأندلسية والمشرقية ساهمت في إبراز مكونات العلمية والثقافية، فتبحر في علوم شتى لغوية ودينية وتاريخية، وعلى رأسها الثقافة النحوية والتفسيرية، فصنّف فيهما التصانيف التي شهد لها معاصروه ومتأخرون عنه بالثناء والبراعة وغزارة علمه، وإمامته ،كما حدّدت مرجعيته الدينية والفكرية التي اتضحت ملامحها جليا في تفسيره البحر المحيط.

أ-منطلقات العملية التفسيرية عند أبي حيان الأندلسي:اهتدى أبو حيان الأندلسي إلى تأليفه البحر المحيط بعد انتصابه "مدرسا لعلم التفسير في قبة السلطان الملك المنصور"[2]، وهذا يدل على رغبته في توثيق تجربته وتثبيت ما يُدارسه بعدما نهل من العلماء السابقين عنه والمعاصرين له. وعلم التفسير في نظره هو: "علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة

[1] – القرطبي،ابن مضاء. أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن.كتاب الرد على النحاة.ص:77.

[2] – الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص: 100.

التركيب وتتمات لذلك"[1].مشيرا الى معاني الفاظه قائلا:"فقولنا علم:هو جنس يشمل سائر العلوم.

وقولنا يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن:هذا هو علم القراءات.

وقولنا ومدلولاتها:أي مدلولات تلك الألفاظ،وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج اليه في هذا العلم.

وقولناوأحكامها الإفرادية والتركيبية:هذا يشمل علم التصريف،وعلم الاعراب،وعلم البيان،وعلم البديع.

وقولناومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب:شمل بقوله التي تحمل عليها مالا دلالة عليه بالحقيقة،وما دلالته عليه بالمجاز،فان التركيب قد يقتضي بظاهره شيئا،ويصد عن الحمل على الظاهر صاد،فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على عير الظاهر،وهو المجاز.

وقولنا وتتمات ذلك: هو معرفة النسخ،وسبب النزول،وقصة توضح ما انبهم في القرآن،ونحو ذلك "[2].

وواضح من تعريفه الاهتمام باللفظ القرآني صوتا ومعجما ونحوا وتغيراته داخل السياق القرآني، فقد حصر عنايته من القرآن في نصّه أي في لغته بالدّرجة الأولى واتخذ منها سبيلا للبحث وأداة لإقامة الحجة له. حيث يؤكد ويقرر أنه "لا يرقى من علم التفسير ذروته إلا من كان متبحرا في علم اللسان"[3]. وهذا يعني أنّ بلوغ هذه الذروة من علم التفسير لا تتأتى له إلاّ بمعرفة سبعة وجوه [4]هي:

[1] – م. س، ج1، ص:121.

[2] – الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص:121.

[3] – م. س، ج1، ص: 109

[4] – م. س، ج1، ص:105-109.

1- علم اللغة، ويقصد به المعجم القرآني.قال:"علم اللغة اسماوفعلاوحرفا،الحروف لقلتها تكلم على معانيها النحاة فيؤخذ ذلك من كتب اللغة...." [1]

2- علم الصرف والنحو، وبه تعرف أحكام الكلم من جهة إفرادها ومن جهة تركيبها.قال:"معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة افرادها ومن جهة تركيبها ويؤخذ ذلك من علم النحو"[2]

3- علم البيان والبديع، وبه تعرف التراكيب من جهة فصاحتها ومن جهة دلالتها.قال:"كون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح،ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع "[3]

4- أسباب النزول والناسخ والمنسوخ، ويعرف ذلك من النقل الصحيح عن الرّسول – صلى الله عليه وسلم-.قال:"تعيين مبهم،وتبيين مجمل،وسبب نزول،ويؤخذ ذلك من النقل الصحيح عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-وذلك من علم الحديث..." [4]

5- علم أصول الفقه، وبه تعرف دلالة الكلام.قال:"معرفة الاجمال والتبيين،والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد،ودلالة الأمر و النهي و ما أشبه هذا،ويختص أكثر هذا الوجه بجزءالأحكام من القرآن،ويؤخذ هنا من أصول الفقه.." [5]

6- علم التوحيد وبه يعرف ما يجوز على الله وما يجب له وما يستحيل عليه.قال:"الكلام فيما يجوز على الله تعالى وما يجب له وما يستحيل عليه،والنظر في النبوة

[1] – م. س، ج1، ص:105.
[2] – م. س، ج1، ص:106.
[3] – م. س، ج1، ص:107 .
[4] – الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص:107 .
[5] – م.س،ج1، ص:108.

ويختص هذا الوجه بالآيات التي تضمنت النظر في الباري تعالى،وفي الأنبياء،واعجاز القرآن،ويؤخذ هذا من علم الكلم"[1]

7- علم القراءات؛ وبه تعرف وجوه الأداء من زيادة ونقصان.قال:"اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص،أوتعيير حركة أواتيان بلفظ بدل لفظ،وذلك بتواتر وآحاد،ويؤخذ هذا الوجه من علم القرآن..." [2]

وهذا دليل على إحاطته بعلوم العربية والتشريع الديني، والذي يرسم من خلالهما المنهج المتبع في مُؤلَفِه البحر المحيط.

ب- منهج أبو حيان في تفسير البحر المحيط:استنادا على الوجوه السبعة التي يجب على المفسّر معرفتها، سطر أبو حيان منهجه في تفسير البحر المحيط، ويمكن عرضه فيما يأتي:

1- منهجه في علم اللغة:يقف أبو حيان عند شرحه مفردات وألفاظ الآية أو الآيات قبل شروعه في تفسيرها وذلك بالنظر إلى تلك المفردات في القرآن الكريم والحديث الشريف والمعجم العربي والاستعمال العربي، قال: "إني أبتدئ أولا بالكلام على مفردات الآية التي أفسّرها لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة، لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه" [3]. فعلى سبيل المثال بعد ذكر للآية أو الآيات اعتماده في شرحه لمفردات والألفاظ على تفسيره القرآن ، أو على السنة الشريفة، ومن المعجم والاستعمال العربي وقوفه على شرح مفردات الآيات، وبرجوعه إلى الشعر، ونجده يلتزم بعدم التكرار لألفاظ ومفردات سبق شرحها إلاّ اذا كان من باب اضافة

[1] - م. س، ج1، ص:108.
[2] - م.س، ج1، ص: 103.
[3] - الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. تفسير البحر المحيط. ج1، ص: 103.

شيء جديد لم يرد فيما سبق ،قال أبو حيان :"...مجتهدا أنّي لا أكرر الكلام في لفظ سبق ولا في جملة تقدم الكلام عليها ولا في آية فسّرت، بل أذكر في كثير منها الحوالة، على الموضع الذي تكلّم فيه عن تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فمزيده فائدة" [1] ،وهذا يعني أنّه كلما تقدم في تفسير آيات القرآن. كان شرحه للمفردات والألفاظ قليلا ومختصرا تجنبا للتكرار.

2- منهجه في ذكر أسباب النزول والناسخ والمنسوخ:

1- أسباب النزول: بعد شرحه لألفاظ ومفردات الآية، يشرع في ذكر سبب نزول الآيات، ومكان النزول ووقته، وإذا كان ضمنها آيات منسوخة يوضح الآيات الناسخة لها، قال: "ثمّ أشرع في تفسير الآية ذاكرا سبب نزولها إذا كان لها سبب ونسخها" [2].وإذا كان المراد بسبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبيّنة لحكمه أيام وقوعه، بمعنى أنّه يعبّر عن حادثة وقعت زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم- أو سؤال وجه إليه، فنزلت تلك الآيات أو الآية ببيان وتوضيح من الله تعالى عن الحادثة الواقعة أو لجواب عن السؤال الموجه إلى النبي –صلى الله عليه وسلم- [3].

وممّا ارتبط فيه سبب النزول بحادثة واقعة قوله تعالى: "**وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**"(سورة النساء،الاية:112) ، قال أبو حيان: "قيل: نزلت في طعمة بن أبيرق، حين سرق الدرع ورماها في دار اليهودي، وروى الضحاك (ت :212هـ)،عن ابن عباس: أنّها نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول، إذ رمى عائشة

[1] – م.س،ج4، ص:417.

[2] – م. س. ج1، ص: 103.

[3] – ينظر: القطّان، مناع. مباحث علوم القرآن. مؤسسة الرسالة،بيروت–لبنان،الطبعة الخامسةوالثلاثون؛1418هـ–1998م. ص: 71،72.

بالإفك" [1]. أو ارتبط بإجابة عن سؤال نحو قوله تعالى: "**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**" (سورة البقرة،الاية:219)، قال أبو حيان: "سبب نزولها سؤال عمر ومعاذ قالا: يا رسول الله، أفتنا في الخمر والميسر، فإنّه مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت" [2].

وقد تجلت عناية أبي حيان بأسباب النزول من خلال ذكره لأسباب نزول الآية أو الآيات دون الترجيح بينها أو بعرض جميع روايات أسباب النزول ويرجح إحداهما عند وجود خلاف في تفسير الآية أو يكتفي بذكر سبب واحد فقط أو يقرّ بعدم وجود سبب لنزول الآية.غير أن المتتبع لمنهجه في سبب النزول، يلحظ تعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة والتي تختلف بين روايات الحديث وأقوال المفسرين.

2- الناسخ والمنسوخ:أشار أبو حيان إلى المدلول اللغوي للنسخ عند ذكره شرح مفردات الآيات من قوله تعالى: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**" (سورة البقرة،الاية:104)إلى قوله تعالى: "**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**" (سورة البقرة،الاية:113). قال: "النسخ: إزالة الشيء بغير بدل يعقبه، نحو نسخت الشمس الظل، ونسخت الريح الأثر، أو نقل الشيء من غير إزالة، نحو نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه إلى مكان آخر" [3]. وحدد مدلوله الاصطلاحي عند تفسيره لقوله تعالى: "**هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**" (سورة الجاثية،الاية:29). قال:" وحقيقة النسخ نقل خط من أصل ينظم فيه،فأعمال العباد كأنها

[1] - الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدّين. تفسير البحر المحيط.ج3،ص:361.
[2] - الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. تفسير البحر المحيط.ج2، ص:166.
[3] - م.س،ج1،ص:506.

الأصل" [1]. وبمعنى آخر: "رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي- فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية، وخرج بقولنا: بخطاب شرعي، رفع الحكم بموت أو جنون أو إجماع أو قياس" [2]. فالعلاقة بين الناسخ والمنسوخ علاقة متقدم بمتأخر، وعلاقة رفع حكم وإثبات حكم شرعي آخر.وقد برزت عناية أبي حيان للناسخ والمنسوخ من خلال:

- نقل أقوال العلماء والمفسرين نقلا صريحا عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أو عن الصحابة –رضوان الله عليهم- أو التابعين.
- تقديم الحجة والدليل في إثبات نسخ الآية من عدمها.
- عرض روايات نسخ الآية من عدمها المختلفة دون الترجيح بينها أو بين أحد الروايات.

وعليه، يمكن القول بأنّ أبا حيان سلك مسلكا دقيقا في معرفة الناسخ والمنسوخ من عدمه.

3- منهجه في ذكر المناسبات: اهتم أبو حيان في تفسيره بذكر المناسبات بين الآيات بعضها ببعضها في السورة الواحدة، وبين السور المتتالية، حيث قال: "ثمّ أشرع في تفسيره الآية ذاكرا سبب نزولها إذا كان لهاسبب، ونسخها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها" [3]. ويبدو أن البحث عن ارتباط الآيات والسور يعتمد على اجتهاد أبي حيان وملكته اللغوية والبلاغية. وربّما صنيعه هذا، يدخل ضمن التفسير بالرأي

[1] - م.س،ج8، ص: 51.

[2] - القطان، مناع. مباحث في علوم القرآن. ص: 211، 212

[3] - الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف علي أثير الدين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص: 103.

4- منهجه في توجيه القراءات: حرص أبو حيان في تفسيره على إيراد القراءات الصحيحة[1] والشاذة[2]، فقد قال في مقدمة تفسيره: "ثمّ أشرع في تفسيره الآية...حاشدا فيها القراءات، شاذها ومستعملها ذاكرا توجيه ذلك في علم العربية" [3].

وقد التزم بمعالم منهجه في إيراد القراءات وتوجيهها، والذي برزت مظاهره فيما يأتي [4]:

- ذكر القراءة الصحيحة والشاذة.
- عدم الترجيح بين قراءتين متواترتين لتساويهما في ثبوت التواتر.

قال: "وهذا الترجيح الذي يذكره المفسرون والنحويون بين القراءتين لا ينبغي، لأن هذه القراءات كلّها صحيحة، ومروية ثابتة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ولكل منهما وجه ظاهر حسن في العربية، فلا يمكن فيها ترجيح قراءة على قراءة" [5].

- ترجيح القراءة المتواترة على القراءة الشاذة.
- نسبة القراءة إلى قارئها، وقد ينسبها للجمهور أو لبعض القراء.
- نقله لأقوال ولتوجيهات من سبقوه، كالزمخشري وابن عطية وابن جني، وغيرهم، وناقدا لها أو مرجحا بعضها على بعض أو معلقا عليها مضيفا رأيه وتوجيهه.

---

[1] – القراءات الصحيحة: وهي القراءة التي تتوفر فيها الأركان الثلاثة مجتمعة، وهي أولا –موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه وثانيا- أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وأخيرا أن تكون القراءة مع ذلك صحيحة الإسناد. ينظر: القطان، مناع. مباحث في علوم القرآن. ص: 158.

[2] – القراءات الشاذة: وهي القراءة التي اختل ركن من أركان القراءة الصحيحة. ينظر: القطان، المناع. مباحث في علوم القرآن. ص: 158.

[3] – م. س، ج1، ص: 103.

[4] – ينظر: شكري، أحمد خالد. أبو حيان الأندلسي ومنهجه في تفسير البحر المحيط وفي إيراد القراءات فيه. دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى؛ 1428هـ- 2007م.ص: 195- 202.

[5] – الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. تفسير البحر المحيط. ج2، ص: 275.

- ذِكْرُه القراءة دون توجيه.

- رَبْطُه القراءات بلهجات القبائل العربية وهذه ميزة وخصوصية تَفَرُّدِه على غيره من المفسرين.

وممّا سبق، يتبين أنّ منهج أبي حيان في إيراد القراءات والاحتجاج لها ساهم في تعدد القراءات ومنه تنوع توجيهها وأحكامها بين التوجيه الصوتي والتوجيه النحوي والتوجيه الصرفي والتوجيه البلاغي وهذا كله للوصول إلى المعنى العام للآية.

5- منهجه في علم النحو والصرف :أصوله وضوابطه:لقد جمع أبو حيان في تفسيره البحر المحيط الكثير من آراء النحاة في مواضع مختلفة والتزم فيه بمعرفة الأحكام النحوية، فكان النحو عنده عماد العملية التفسيرية في بحره، فعليه يقوم، وبه يبدأ قال: "والوسائل التي يحتاج إليها المفسر معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة إفرادها، ومن جهة تركيبها" [1] حيث يرى أن المقصود بأحكامها الإفرادية والتركيبية يشمل علم التصريف وعلم الإعراب [2].

فإحكام أبي حيان الصلة بين العملية التفسيرية والنحوية، جعلت من البحر المحيط موسوعة تفسيرية نحوية قيمة، استقت مادتها اللغوية والنحوية من مصادر كثيرة ومتعددة أهمها:

1- الكتاب لأبي بشر عمرو بن قنبر سيبويه والذي كان الركيزة الأولى في إثبات الحجة والدليل. قال عنه أبو حيان: "وأحسن موضوع فيه –علم النحو- وأجله كتاب أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه" [3].

2- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لأبي عبد الله محمد بن الجياني (ت: 372) ،قال عنه أبو حيان: "وأحسن ما وضعه المتأخرون من المختصرات وأجمعه للأحكام تسهيل الفوائد لأبي عبد الله محمد بن مالك الجياني" [1].

---

[1] - م.س،ج1، ص: 106.

[2] - ينظر: م. س، ج1، ص: 106.

[3] - الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص: 106.

3- الممتع لأبي الحسن علي بن مؤمن بن عصفور الحضرمي (ت: 669هـ)، يقول عنه أبو حيان: "وأحسن ما وضع في التصريف كتاب الممتع" [2].

4- التكميل في شرح التسهيل لأبي حيان الذي كان له الحضور القوي في البحر المحيط.

وقد كان أبو حيان يعتمد على السماع في إثبات الأحكام النحوية، وجعله الأصل الأول الذي يبني عليه أحكامه النحوية، قال: "وذلك مذهبنا في إثبات الأحكام النحوية أنّا نرجع فيها إلى السماع...والقياس الذي نذكره نحن في النحو إنّما هو بعد أن تقرير السماع، فلا نثبت الأحكام بالقياس إنّما نثبتها بالسماع من العرب، ويكون في الأقيسة إذ ذاك تأنيس وحكمة لذلك السماع" [3] ،ونجده في البحر المحيط يختار من المذاهب ما وافقه السماع وشهد له الأنواع الثلاثة السابقة .وقد كان أبو حيان يلجأ إلى الأخذ بالقياس في المسائل النحوية بعد تقريرها بالسماع، قال: "فلمّا اطلعنا على مذاهب الناس في هذه المسألة ولاختلافهم فيها رجعنا عند الاختلاف إلى السماع من العرب، فما وجدناه منقولا عنهم أخذنا به، وما لم ينقل من لسانهم إمّا اطرحناه ، وذلك مذهبنا في إثبات الأحكام النحوية، أنا نرجع فيها إلى السماع، فلا نثبت شخصيا من الأحكام إلاّ بعد إثبات نوعه، ولا نثبت شيئا منه بالقياس، لأنّ كل تركيب له شيء يخصه، فلو قسنا شيئا على شيء لأوشك أن نثبت تراكيب كثيرة، ولم تنطق العرب بشيء منها من أنواعها والقياس الذي نذكره نحن في النحو إنّما هو بعد تقرير السماع، فلا نثبت الأحكام بالقياس إنّما نثبتها بالسماع ، ومن تأمل كتاب سيبويه وجده في أكثره سالكا هذه الطريقة التي اخترناها في إثبات الأحكام بالسماع" [4].ويتبين من قوله أنّه

---

[1] - م.س،ج1، ص: 106.

[2] - م. س، ج1، ص: 106.

[3] - نعيم، مزيد إسماعيل. منهج أبي حيان النحوي الأندلسي في كتابه. ارتشاق الضرب من لسان العرب. دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر، 1398هـ- 1978م، ص: 117- 118.

[4] - نعيم، مزيد إسماعيل. منهج أبي حيان النحوي الأندلسي في كتابه. ارتشاق الضرب من لسان العرب.ص: 117، 118.

يأخذ بالنصوص المسموعة من كلام العرب ويبني عليها أحكامه النحوية (أقِيسَتَهُ) سالكا الطريقة البصرية الممثل لها بسيبويه.ومعنى هذا، أنّ تتبعه للبصريين في إثبات الأحكام النحوية يبين منهجه النحوي، فالبصريون قد" أخذوا من المسموع بقدر، وبنوا قواعدهم على الكثرة المطردة من كلام العرب، ومن صادفهم من شواهد مخالفة لأقيستهم ،فإنهم يعملون على تأويلها، أو حملها على الضرورة، أو يحكم عليها بالشذوذ والندرة" [1].وبالتالي، فالقياس عند أبي حيان يكمن في كثرة الشواهد والنصوص المسموعة التي تُكَوِن الأساس الذي يبني عليه القواعد والأحكام النحوية.

أما الإجماع الدليل الثالث من أدلة النحو، وقد عرفه السيوطي بقوله: "المراد به إجماع نحاة البلدين: البصرة والكوفة" [2] ، وبمعنى آخر: ما اتفق أو اختلف عليه نحاة البصرة والكوفة في المسائل النحوية.

ومن العبارات الدالة على اعتداده بالإجماع قوله:تقرير هذا في كتب النحو عند، وخلاف ما زعم النحويون، وقول سيبويه والنحويون، جمهور النحويين، مخالفا لمّا أجمع عليه الكوفيون والبصريون.

وفي ظل هذه الأدلة الثلاثة ،كان أبو حيان يناقش أراء النحويين ويرّجح رأيا على رأي، ويختار الأنسب، ويرد الأضعف، متبعا الدليل ومحيلا في بعض المسائل التي يتعرض لها إلى مؤلفاته النحوية لمن أراد التفصيل للتعمق فيها أو لغيره أو يكتفي بقوله "مذكور في كتب النحو" وما شابهها.

ويظهر ممّا سبق، أنّ نحو أبي حيان لم يكن بصري النزعة رغم تمسكه بمنهجهم ولا كوفيا، ولا بغداديا، ولا أندلسيا، بل كان يناقش أقوال النحويين ويرجح ويرد ويختار ويجمع

[1] –م.س،ص: 117.

[2] – السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. الاقتراح في أصول النحو. علق عليه: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1426 هـ- 2006م.ص: 187.

بين هذه المذاهب وبأخص مذهبي البصرة والكوفة لاستنطاق أو بيان الحكم في المسألة النحوية حيث التزم به وحرص على بيان معالمه في تفسيره البحر المحيط.

6- منهجه في علم البيان والبديع:يقف أبو حيان على جمالية بلاغة النّص القرآني من خلال علمي البيان والبديع قال في مقدمته: "ثمّ أشرع في تفسير الآية...بحيث إنيّ لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها مبديا ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب، من بديع وبيان" [1] ، حيث إنّه كان عند الانتهاء من السورة أو مجموعة من الآيات أو آية واحدة يذكر ما جاء فيها من لطائف بلاغية من بيان ومعاني وبديع، كما نلمح فيما سطره بين دفتي تفسيره، لمسات بيانية تعبر على أسرار النظم القرآني، منها، دقة استعمال اللفظ القرآني،ويتضح أن عناية أبي حيان بالبحث عن أسرار البيان القرآني وفصاحته ودقائقه أضفت على بحره لمسة جمالية تشهد له افتنانه بهذا العلم وتمكنه منه.

7**-منهجه في الفقه وأصوله**:تفيد كتب الطبقات والتراجم أنّ أبا حيان تمذهب بالمالكية في أول أمره ثمّ بالمذهب الظاهري أثناء إقامته بالأندلس حيث كان سائدا هناك وكان يقول محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه، وبعد مجيئه إلى مصر اتبع المذهب الشافعي الذي كان مشهور في تلك البلاد [2].

وبمرجعيته المذهبية وعقيدته السليمة من البدع الفلسفية ، تعرض للعديد من المسائل الفقهية وللكثير من قضايا أصول الفقه، "ناقلا أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية ممّا فيه تعلق باللفظ القرآني، محيلا على الدلائل التي في كتب الفقه" [3].

وقد تمثّل منهجه في ذلك، فيما يأتي:

- نقله للقاعدة أو المسألة الفقهية عن أئمة الفقه بتصرف يسير ومختصر.

---

[1] - الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف أثير الدين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص: 103.

[2] - ينظر:م.س،ج1، ص: 57.

[3] - م.س،ج1، ص: 103.

-ذكره للمسألة الفقهية أو الأصولية باختصار ممّا تدل عليه الآية محيلا في عرض أقوال المذاهب وأدلتهم إلى كتب الفقه وأصوله.

8-منهجه في أصول الدّين والرّد على المتكلمين: تعرض أبو حيان في تفسيره إلى أصول الدّين ومسائل الاعتقاد وتحدث عن أدلة التوحيد، بحيث كان حديثه موجزا مناقشا فيه أقوال المفسرين محيلا على الدلائل في كتب أصول الدين.

وقد كانت لأبي حيان اعتراضات وردود قوية على المتكلمين من المعتزلة والمتصوفة وغيرهما، وبخاصة الزمخشري في تفسيره الكشاف ومناقشة أدلتهم وإبطال حجتهم.

وبالطريقة نفسها هاجم الإسرائيليات وكلام الصوفية، وكل ما يبعد مدلول اللفظ من معناه الحقيقي إلى المعنى التأويلي، قال: "وربما ألممت بشيء من كلام الصوفية ممّا فيه بعض مناسبة بمدلول اللفظ، وتجنبت كثيرا من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الألفاظ القريبة عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى وعلى عليّ كرّم الله وجه وعلى ذريته، ويسمونه علم التأويل" [1].

وفي هذا كله، تجنب العرض التفصيلي والتوسع في نقل وبيان أدلة المذاهب في الفقه وأصوله وأصول الدين والنحو والصرف، بل يذكر القول الراجح منها، قال: "وكثيرا ما يشحن المفسرون تفاسيرهم من ذلك الإعراب بعلل النحو ودلائل أصول الفقه ودلائل أصول الدين، وكل هذا مقرر في تأليف هذه العلوم، وإنّما يؤخذ ذلك مسلما في علم التفسير دون استدلال عليه، وكذلك أيضا ذكروا ما لا يصح من أسباب نزول، وأحاديث في الفضائل، وحكايات لا تناسب، وتواريخ إسرائيلية، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير" [2].

9-**تلخيص مضمون جملة من الآيات:** بعد كلامه على مفردات الآيات وما تحتاج إليه من اللغة والنحو وأسباب نزولها والناسخ والمنسوخ ومناسبة ارتباطها ببعضها البعض، وما

[1] - الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف أثير الدين. تفسير البحر المحيط. ج1، ص: 104.

[2] - م.س، ج1، ص: 104.

جاء فيها من القراءات وتوجيهها، بعيدا عن التكرار بلا فائدة، ناقلا أقاويل النحويين والفقهاء في الأحكام النحوية والشرعية، محيلا على الدلائل في كتب النحو والفقه وأصوله، ملتزما بما دل عليه ظاهر اللفظ، ملخصا ما جاء فيها من روائع بيانية وبديعية، يتبع تلك الآيات بكلام منثور يشرح به مضمونها على ما يختاره من تلك المعاني ملخصا جملها في أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معاني لم يقف عندها من قبل عند تفسيرها [1].

ج-أهم الجوانب المتفرِّدة لتفسير البحر المحيط:

-رسم أبو حيان للمفسرين من بعده منهجية واضحة المعالم،حين جعل من التفسير علما يستند الى قواعد ومبادئ قائمة على الدقة والترتيب.

-اعتمد أبو حيّان في تفسيره على أساس من اللغة والنحو،ولذا جاء قويا محكما في بنيانه.

-جمع أبوحيان بين التفسير بالأثر والتفسير بالرأي،فالأول بدى جليا في ذكره للآثار الثابتة عن النبي –صلى الله عليه وسلم-وصحابته الكرام،والتّابعين والثّقات ،والثاني من خلال بيان الجلي والخفي بحيث لا يغادر منها كلمة حتى يتكلم عليها،وحديثه عن غوامض الإعراب.

-جعل أبو حيان من تفسيره قاعدة تعليمية للنحو العربي من خلال عرضه لتلك التعقيدات النحوية التي أثارتها منطلقات الفكرية للمذاهب والمدارس النحوية.

-يمكن اعتبار تفسير البحر المحيط خطاب نصي ،لأنه "يتجاوز اطار التفسير اللغوي المغلق،أو التفسير الفقهي أو الكلامي ...إنّه يؤسس عملية تفسيرية أعم وأشمل،فهو يهتم بما يوجه اللّساني والقارئ والكلامي والفقيه...لتأسيس خطاب منسجم يعبّر عن تناسب سور القرآن وآياته"[2]

[1] – ينظر: الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف أثير الدين. تفسير البحر المحيط.ج1، ص: 103.

[2] –فارس،عبد العزيز.التناسب البلاغي وآليات اشتعاله من خلال البحر المحيط.دكتوراه،الدار البيضاء،المغرب، 2003-2004 ،ص:270.

-لقد أجمعت كثير من الدراسات على أنّ تفسير البحر المحيط يُعد الحلقة الأخيرة في سلسلة التفاسير اللغوية ؛باعتباره تفسيرا اهتم بدلالة الخطاب والاجتهاد في ادراك المقاصد،فهو صاحب مذهب في التفسير يتحمس له،وهو صاحب منهج في معالجة النص يستدعي منه ككل مفسر أن يكون مطلعا على جملة من العلوم الدينية لايستقيم التفسير بدونها[1]

-لقد تعامل أبوحيان مع النص بتدرج في علم التفسير ينطلق فيه من البساطة الى التعقيد،ومن العناصر المفردة الى المركبة،فاننا لانعدم في النظم من التراكيب العربية ما يحتاج الى توضيح،ولا نعدم في قراءات القرآن من الاختلاف النحوي الاعرابي ما اتصل بالمعنى واحتاج الى التفسير[2] ،فاهتمامه بالمستوى النحوي والتركيبي يليه المستوى البلاغي ثم الافرادي ثم الصوتي.

-ينطلق أبو حيان في تفسيره من النص على الحقيقة ولا يجنح الى التأويل الا اذا دعت الضرورة لذلك،حيث انّه جمع بين تفسير على الظاهر والتأويل على الباطن،وهذا مانجده في حديثه عن غياب العائد في الضمير،وفي تأويل اللّفظ بغير الظاهر،وفي الالتفات ،وفي تقدير الحذف،وفي تغيير الدلالة الزمنية للأفعال،وفي تسلسل الأحداث وارتباطها بشكل منظم.

- نجد أنّ أبا حيان في تعامله في تحليل الظاهرة اللغوية، انتهج منهجين:

أحدهما: القول بالعامل وما يحدثه من أثر إعرابي في الكلمة، قال أبو حيان: "الإعراب تغيير الآخر، جعل الإعراب تغييرا، وذلك يدل على أنّ الإعراب معنوي، وبعضهم ذهب إلى أنّ الإعراب لفظي، وأنّ الضمة في نحو: "قام زيدٌ" هي نفس الإعراب، والمختار أنّها علامة للاعراب لا نفسه وتحرز بالآخر من تغيير الأول والوسط كتغيير الكلمة في التصغير والتكسير، فإنّ ذلك ليس بإعراب"[3]. وذلك لأنّ "اللفظ يدل عليه، فإذا معنويا فلا يكوِّن

[1] – الجطلاوي، الهادي. قضايا اللغة في كتب التفسير– المنهج، التأويل، الإعجاز–. ص:74.

[2] – ينظر: الجطلاوي، الهادي. قضايا اللغة في كتب التفسير– المنهج، التأويل، الإعجاز–.ص:162.

[3]– الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. النكت الحسان في شرح غاية الإحسان.تحقيق: عبد الحسن الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى؛ 1405 هـ– 1985م، ص: 34.

الكلمة المعربة، وأما ما اختاره المصنف[*] من أنه لفظي، فإنّه زائدة على ماهية الكلمة،فلا يكوّن بعض الكلمة ،لان بعض الشيء جزءمن الشيء ،ومحال وجود الماهية مع فقد جزء من أجزائها، وقد وجدنا ماهية الكلمة دون إعراب، فدّل على أنه ليس بعضها منها"[1]. فهو يرى أنّ الإعراب ظاهرة معنوية تقوم على الوضوح وعدم التكلف وتقوم على حمل إعراب النص القرآني على أحسن الوجوه، قال: "وربّما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريبا أو خلاف مشهور ما قال به معظم الناس، بادئا بمقتضى الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ، مرّجحا له ذلك ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه ، منكبا في الإعراب عن الوجوه التي تنزه القرآن عنها، مبينا أنّها ممّا يجب أن يعدل عنه، وأنّه ينبغي أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب إذ كلام الله أفصح الكلام فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النحاة"[2].

والثاني: دراسته للمعنى النحوي في علاقته التركيبية أو بمعنى آخر تفسيره لمعاني الأبواب النحوية وما تحدثه من علاقات تعالقية تآلفية (الكلمة فالجملة، فالنص) في إطار سياق تواجدها باستدعاء الأنظمة اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية، وقد يستحضر أسباب النزول ، نحو تفسير قوله تعالى: "**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**"(سورة آل عمران،الآية:21).

قال أبو حيان بعد عرضه لأسباب النزول : "وهذه الآية جاءت وعيدا لمن كان في زمانه –صلى الله عليه وسلم- ولذلك جاءت الصلة بالمستقبل ودخلت الفاء في خبر أنّ

---

[*]- المصنف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجيّاني صاحب تسهيل الفوائد. ينظر: الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. التذليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل. تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق-سوريا، ج1، ص: 06.

[1]- الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. التذليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل. ج1، ص: 21.

[2]- الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. تفسير البحر المحيط. ج1، ص: 103.

،لأنّ الموصول ضمّن معنى اسم الشرط، ولما كانوا على طريقة أسلافهم في ذلك نسب إليهم ذلك، ولأنهم أرادوا قتله –صلى الله عليه وسلم– فقتله أتباعه فأطلق ذلك عليهم مجازا أي من شأنهم وإرادتهم ذلك"[1].

من النهجين السابقين، يتبيّن أنّ أبا حيان أقرّ العامل وبوجوده، وهذا ما ذهب إليه بقوله: "والعامل هو ما أثر في آخر الكلمة من اسم أو فعل أو حرف، والأصل أن يكون من الفعل، ثمّ من الحرف، ثمّ من الاسم، والأصل تخالفه مع المعمول في النوع، فإن كان من نوع واحد فلمشابهته ما لا يكون من نوع المعمول، ولا يؤثر العامل أثرين في محل واحد، ولا يجتمع عاملان على معمول واحد إلاّ في التقدير نحو: ليس زيدٌ بجبان، ولا يمتنع أن يكون له معمولات"[2]، غير أنّه دعا في العديد من المواضع النقاشية النحوية إلى عدم الخوض في الخلافات التعليلية بين النحويين التي يراها أنّها لا جدوى منها، وهذا ما ذهب إليه –على سبيل المثال– عند مناقشته لمسألة علة إعراب المضارع ، قال : "وقد طول المصنف بترجيح ما أبدى من التعليل لإعراب المضارع على ما ذكر غيره ممّا يوقف عليه شرحه[*]. والمسألة قليلة الجدوى؛ لأنّه خلاف في علة، وأمّا الحكم فهو أنّ الإعراب دخل في المضارع كما دخل في الاسم"[3].

ومن جهة أخرى، تعامله مع التركيب النحوي في ضوء معرفة معاني النّص القرآني في علاقاته النحوية من خلال الكشف عن المعنى وتوجيهه، حيث بواسطة تحديده ينتقل المعنى من الإفرادية إلى التركيبية الجملية أو النصية عن طريق إنشاء علاقة نحوية وثيقة بين معنيين أو

[1]– م.س،ج2، ص: 429، 430.

[2]– الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. التذليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل. ج1، ص: 119.

[*]– شرحه يقصد شرح التسهيل لابن مالك.

[3]– الأندلسي، أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي أثير الدين. التذليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل. ج1، ص: 126.

أكثر دون واسطة لفظية أو باستعمال واسطة[1]. وهذا ما يفيد بحثه في الإسناد والتبعية والإحالة والتكرار وغيرها، وما يعزز بحثه في نصية النّص القرآني في نظرته إلى القرآن ككلمة واحدة، ومعالجتها لمعنى الرابط بين جمل من الآيات والمناسبة بينها.

خاتمة:

ممّا تقدم يتبين أنّ أبا حيان وضح معالم بنائه المنهجي في مقدمة تفسيره وبين الطريق الذي يسلكه والقواعد التي يتتبعها في تفسير النّص القرآني، حيث نجد له اهتماما بالتفسير المعجمي، والنحوي -التركيبي- والبلاغي والنصي في شموليته، مستفيدا من أقوال المفسرين والنحويين ناقلا وموجها لها، ومتبعا الأدلة والحجج، مبرزا ملامحه من خلال عنايته باللغة وتوجيه المعنى النحوي والقراءات متواترها وشاذها، وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والأحكام الفقهية والأصولية معرضا عن الخوض في المسائل الكلامية والفلسفية والجدلية، ومحاربا للاسرائيليات وكلام الصوفية والموحدين، وموجزا للمسائل البلاغية، وملخصا لمضمون الآيات؛ولما كان النحو السمة الغالبة على تفسير البحر المحيط، فهو يعد موسوعة تفسيريه نحوية بالدرجة الأولى، كما قال الذهبي (ت: 1977م): "المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم، إذ أن الناحية النحوية هي أبرز ما فيه من البحوث التي تدور حول آيات الكتاب العزيز" [2].

[1] - ينظر: حميدة، مصطفى. نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، ص: 06.

[2] - الذهبي محمد حسين. التفسير والمفسرون. ج1، ص: 226.